المحاضرة الثانية

إشكالية التراث لدى تيار الإصلاح
(الطهطاوي، الأفغاني، محمد عبده)

كان اتصال الفكر العربي الحديث بالثقافة الغربية وراء عودته إلى التراث يدارسه ويراجعه ويستشكله، ليتخذ منه موقفا، وينظر في مدى إمكان التعويل عليه في إنجاز نهضة حضارية يواكب بها العالمُ العربي والإسلامي حضارةً غربية صاعدة قوية باهرة متفوقة.

لذلك كان موقف المفكر العربي الحديث من تراثه مؤسسا على موقفه من هذه الحضارة الغربية ذاتها؛ إذ على قدر الانبهار بها، والتسليم بكونيتها ومثاليتها، يكون الموقف من التراث العربي الإسلامي فهما وتقديرا ومساءلة واستفادة وانتماء.

ولأن الحضارة الغربية تأسست على اعتماد العقل مرجعا للأفكار والمناهج والقيم، وعلى العلم التجريبي منهجا في المعرفة والاعتقاد والتعامل مع الوجود، وعملت على محاصرة تأثير الدين في الحياة، وعزله في ركن ضيق من شؤون الإنسان، فقد ظلت جدلية العقل والوحي، والعلم والدين، هي محور الجدل والنقاش في تناول إشكالية التراث؛ سواء لدى التيار المحافظ الذي ينظر إلى التراث العربي الإسلامي نظرة تقدير واحتفاء، ويشعر نحوه شعور الولاء والانتماء، أو لدى التيار الحداثي الذي يتخذ الحضارة الغربية أنموذجا يُحتذى، وينظر إلى هذا التراث من نافذة الثقافة الغربية منهجا ومعرفة وقيما.

ونتناول في هذه المحاضرة موقف رموز التيار الإصلاحي المحافظ من هذا التراث.

يقصد بهذا التيار الفكر الذي تحرك منطلقا من ثوابت الأمّة، مقتنعا بأن الثوابت هي كيان الأمّة وروح وجودها وسبيل نهوضها واستمرارها، وأنها لذلك لم تفقد مسوّغ بقائها، وصلاحية تشييد البناء عليها، وأن الخلل لا يكمن في هذه الأصول ذاتها، وإنّما في أسلوب تعامل الإنسان المسلم معها، ومدى تفاعله مع مصادر القوة فيها والدفع بها حركة وتدفقا في مجرى الزمن. فكان الرأي أنّ السبيل هو إصلاح الإنسان والمجتمع بوصلهما ثانية بمصادر القوة والحياة متجسدة في روح الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، وإحياء هذه الروح بإزالة ما ران عليها من ركام البدع وأخلاط الأفكار والتقاليد

والمشاعر غير الأصيلة فيها، وتأهيل وعي الأمة بحيث تقدر على تمييز الصحيح من الزائف، والحكمة من الضلالة، وتسخير المادة من تأليه الطبيعة، واقتباس العلوم من تلقف الفلسفات. وكان القاسم المشترك بين أبناء هذا التيار هو الانبثاق في الفكر والمنهج من مرجعية النص.

ولقد كان حرج الموقف سببا في أن تباينت مواقف هذا التيار من الحضارة الغربية وسبيل التعامل مع علومها ومذاهبها، ومقدار ما يصح أخذه عنها، ومدى الحاجة إلى التوفيق بين ثوابت النص وأصول التراث، ومتغيرات العصر ومستحدثات الحضارة. ولعل جيل الرواد كان هو الأكثر إحساسا بهذا الحرج، ومن ثم الأكثر تأثرا بضغوط الحضارة الغربية، وميلا إلى التكيف معها وتفسير النص بما يثبت إمكان التوافق مع عناصر الخير والتقدم فيها، وكان أول الجيل هو إمام البعثة العلمية الأولى إلى فرنسا رفاعة رافع الطهطاوي.

تأثر الطهطاوي (1801- 1873) بما لاحظه في الغرب من ألوان الرقي الحضاري ومراتب البراعة في العلوم، وتراءى له أنّ كثيرا مما يلاحظ هو من صميم غايات إقامة العمران وبناء الحضارة. ولكنه لاحظ أنّ للغرب منهجا في الفكر والاعتقاد يخالف المنهج المستقيم، فعكف في كتاباته على رسم السبيل الذي يتيح للمسلم أن يترسم خطى حضارة الغرب دون أن يتخلى عن دينه؛ فكان منهجه التنبيه إلى المشترك الإنساني المتمثل في علوم الطبيعة والمدنية لاستلهامها والاستفادة منها، والتنبيه على خصائص الهوية ومرجعية الاعتقاد والاحتكام للاستمساك بها والحرص عليها.فكان بذلك واضح الانطلاق من مرجعية النص والاحتكام إلى ميزان الشريعة، وقد عبر عن ذلك في نصوص كثيرة وصريحة مثل قوله: " البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة في علوم الرياضة والطبيعة، وما وراء الطبيعة، أصولها وفروعها، ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية، وتوصلوا إلى فهم دقائقها وأسرارها... غير أنهم لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم، ولم يسلكوا سبيل النجاة، ولم يرشدوا إلى دين الحق، ومنهج الصدق. كما أن البلاد الإسلامية قد برعت في العلوم الشرعية والعمل بها، وفي العلوم العقلية، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها، فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية في كسب مالا تعرفه، وكسب ما تجهل صنعه"[1].

ومع أن الطهطاوي قد توسع في الأخذ بالكثير من الأفكار الغربية رآها موضع استحسان عقلي وعدم تعارض مع الشرع، فإنه ظل وفيا إلى مرجعية النص، حريصا

---

[1] الطهطاوي، الأعمال الكاملة، دراسة و تحقيق محمد عمارة ،ط. بيروت، 1973، ج2، ص147.

على التميز عن منهج الغرب؛ فهو يعتبر أن " تحسين النواميس الطبيعية لا يعتدّ به إلا إذا قرره الشارع"، وأنه "ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبّحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه"، ثم يؤكد أن المعول عليه في تعليم النفوس وتنظيم الحياة هو الشرع، وأن المرجع في ذلك هو النص، وأن القول بمرجعية العقل هو قول النفوس القاصرة، فيقول: "والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع، ومرجعها الكتاب العزيز الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول... فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى، ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود.

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة، ومعلوم أن الشرع لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا ينافي المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة"[2].

وهكذا يرجع الطهطاوي كل مصدر للخير والنفع إلى الله؛ فشريعته جامعة لأنواع المطلوب، والعقل الذي يستحدث النافع و يخترع الصناعة هنا أو هناك إنما هو هبة أو إلهام من الله. ولا تعارض، مطلقا، بين المنقول والمعقول، وبين الدين والحكمة. فالطهطاوي "ينظر إلى التمدن من موقع الإيمان المطلق، المسبق بالدين الإسلامي وصحته"، وينضم "إلى الموقف التوفيقي الذي وقفه الفلاسفة العرب القدامى، وخصوصا بن رشد، وأكدوا فيه على الوحدة بين الدين والفلسفة"[3].

ومن أبرز الرواد في حركة الصلاح بعد الطهطاوي المفكران المصلحان الكبيران جمال الدين الأفغاني (1838- 1898م) ومحمد عبده (1849- 1905م)، وقد كان الجامع بين فكريهما الاعتداد الكبير بالعقل ومكانته في الإسلام، والعمل في إحياء روح الأمة بتحريك عقلها الجامد، وتحريك طاقتها المكبلة أو العاطلة، والحرص على التمييز بين مبادئ الإسلام المحكمة وواقع المسلمين المتخلف من جهة، والتمييز بين مدنية أوروبا المادية المتفوقة ومذاهبها الفلسفية والاجتماعية الضالة الفاسدة من جهة ثانية. وكان الجامع الأكبر بينهما أنهما ينطلقان في أفكارهما ومنهجهما للنهوض بالأمة من مرجعية النص. وقد ألّف الأول كتاب (الرد على الدهريين) مقاومة لفكر التغريب ونزعة الإلحاد والمادية اللذين أخذا يتسربان من الغرب إلى الشرق، وألف الثاني كتاب

[2] المصدر السابق، ص 159، 160، 79، 32، 477، 386، 387.
[3] أدونيس، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت، ط4، 1983، ص 39.

"الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" مدافعة لشبهات التماثل بين الإسلام والنصرانية في مجانفة العلم ومجانبة السياسة، ومرافعة عن مرجعية النص، وضرورة اتخاذه أساسا لإقامة المدنية القوية لوطنية الدين أو (الجامعة الإسلامية) بمصطلح ذلك العصر، وظلا يدعوان إلى هذه الجامعة، ويقاومان كل نزعة إلى تفتيتها، وتحويل مسارها عن الاتجاه الصحيح.

في شأن مكانة العقل في الإسلام يقول الأفغاني: "إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفردا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين في عشواء العماية، والقدح في سيرتهم. هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل..."[4]. "إنّ الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا، وما صوره جموده بأنه خيال قد أصبح حقيقة..."[5].

ويقول محمد عبده في الغاية من نشاطه الفكري "تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى"، والاعتماد على العقل طريقا

لذلك، "فالعقل هو الينبوع في الإيمان بالله وعلمه وفكرته والتصديق بالرسالة. أما النقل فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة والعبادات"[6].

وفي شأن السبيل إلى النهوض بالأمّة انطلاقا من مرجعية الدين يقول الأفغاني: "أرسل فكرك إلى نشأة الأمّة التي خملت بعد نباهة، واطلب أسباب نهوضها الأوّل.. إنّه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم.. منوّر للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدينة..

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمّة، ولها وردت وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنّما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا..

---

(4) جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، ط. القاهرة، 1968، ص 177.

(5) المصدر السابق، ص265.

(6) محمد عبده، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، بيروت، 1972، ج2، ص318.

فعلاجها الناجح إنّما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته...

ومن طلب إصلاح أمّة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد. ولا يزيد الأمّة إلاّ نحسا، ولا يكسبها إلاّ تعسا.."[7].

ويقول محمد عبده: "أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه. وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية، من عهد محمد علي إلى اليوم، فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلاّ فسادا–وإن قيل إنّ لهم شيئا من المعلومات- فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم.."[8]. "لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا، والقرآن الكريم في إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون في اليد الأخرى. ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم"[9].

وإذ كان هذا هو الموقف والسبيل في نظر الرجلين المصلحين، فإنهما ظلاّ يشنّعان على كل ناقل بغير فهم، ومقلّد بلا تمييز، وسالك في إصلاح الأمّة غير سواء السبيل، سواء أكان من الدعاة إلى الأخذ بالدين، أم كان من الدعاة إلى اتباع سبيل الغربيين، وكان هؤلاء أحق بالتشنيع لما يمثلونه من خطر على كيان الأمّة، يقول الأفغاني: "إنّ أشدّ وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة، الذين بمجرّد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم، يعتقدون أن كل الكمالات إنّما هو فيما تعلموه من اللسان، على بسائطه، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات، وقراءة سير و سير من قطع مراحل الغربيين في سبيل الأخذ في ترقية أمته، بدون أن يسبروا من ذلك غورا، أو يفهموا لتدرجهم معنى، ويعتقد الناشئ الشرقي أن كل الرذائل ودواعي الحطة ومقاومات التقدم إنّما هي في قومه، فيجري مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، وكل مشروع

---

(7) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ص197-198.

(8) محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج3، ص159.

(9) المصدر السابق، ص 251-252.

وطني تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده، ويأنف من أي عمل ما لم يشارك فيه الأجنبي!"[10]

وهكذا ظلّ فكر الرجلين المصلحين مستندا إلى ثوابت الأمّة، وأبرزها مرجعية النص ووطنية الدين، ولم تنل بهارج مدنية الغرب من رزانة الموقف عندهما واستنارة الرأي. ولئن تركت في فكرهما أثرا تجلى في مبالغة الاعتداد بالعقل واعتماده مرجعا في التوفيق بين الدين والفلسفة، فإنّ رؤيتهما ظلّت غير مشوبة بنزعة المادة وغبش التصور ولوثة الانبهار والانهزام. وكم يتجنى بعض الرجال في تيار الحداثة على الحقيقة، حين يجعلون هؤلاء الرواد الثلاثة روادا لحركة الحداثة ومسار التنوير بمفهومه الغربي[11].

---

(10) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ص190.

(11) ينظر على سبيل المثال: جابر عصفور، هوامش على دفتر التنوير، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء ط1، 1994، وينظر تفصيل الرد على هذا (التزوير) في: الإسلام بين التنوير والتزوير، لـمحمد عمارة.